تسحب الفولاذ في ملتطم بالصوادي متمال معتكر
لو أشارت جاءها ساحله في حديد وعديد منتصر
أو فدى الميتَ حيٌّ فديت بوقاح في الجواري وخفر
بعث البحر بها كالموج من لجج السند وخلجان الخزر
لمستها للمقادير يدٌ تلمس الماء فيرمى بالشرر
ضربتها وهي سر في الدجى ليس دون الله تحت الليل سرّ
وجفت قلباً وخارت جؤجؤاً ونزت جنباً وثابت من أخر
طعنت فانبجست فاستصرخت وتاها حتفها فهي خبر

المغرب الاقصى

المغرب الاقصى (ويطلق عليه عادة اسم مراكش مع ان مراكش اسم عاصمة من عواصمه) بلاد شرقية محضة انحط شأنها كما انحط شأن كل البلدان الشرقية التي كانت مهد العمران . وكنا نظن ان اليقظة الحديثة التي تناولت البلدان الشرقية بعد سباتها الطويل لا تتناول المغرب الاقصى الا بعد سنوات كثيرة ولكننا اطلعنا الآن على مقالة للسيو بيرده لاني في مجلة اميركية اذا كانت خالية من التزلف والمبالغة كما نراها فتلك البلاد الناشئة قد خطت بقدم ثابتة في سبيل الحضارة الحديثة بعد احتلال فرنسا لها. والفضل في ذلك لرجل اختير لادارتها وهو المرشال هوبر ليوتي Hubert Lyautey فرأينا ان نلخص مقالة المسيو لاني ونمهد لها تمهيداً وجيزاً بخلاصة ما كان يعرف عن المغرب الاقصى سنة ١٩١٣ اي قبيل الحرب

اعترف سلطان المغرب الاقصى في ابريل سنة ١٩١٢ ان بلاده دخلت تحت حماية فرنسا ووقع معاهدة الحماية في عاصمته فاس . وكانت اسبانيا تدّعي حق الحماية على جانب من المغرب الاقصى فاتفقت هي وفرنسا في نوفمبر من تلك السنة على نصيب كلٍّ منهما من تلك البلاد. وهكذا يقتسم الاقوياء اسلاب الضعفاء سنّة طبيعية لا مناص منها كما اقتسم العرب اسلاب اسبانيا في العصور الغابرة

وقيل حينئذٍ ان مساحة المغرب الاقصى نحو ٢١٩٠٠٠ ميل مربع والسكان نحو خمسة ملايين نفس وهم مزيج من العرب والبربر والطوارق والزنوج واليهود ونحو

٣٧٠٠٠ من الاوربيين اكثرهم في الدار البيضاء وطنجة . وعاصمة المغرب مدينة فاس وقُدّر عدد سكانها حينئذٍ ١٤٠٠٠٠ . وتليها طنجة وعدد سكانها ٣٥ الفاً والسلطان ورعيتهُ سنيون على مذهب مالك ولغتهم العربية . وكان دخل الحكومة حينئذٍ ١٠٤٥٢٤٦ جنيهاً ما عدا زيادة في رسوم الجمارك على الواردات تبلغ ٥٠٤٣٧٢ جنيهاً تنفق على الاعمال النافعة في المرافىء . وكان على الحكومة دين لفرنسا والمانيا يبلغ ٣٠٤٠٠٠٠ جنيه وحُمّلت غرامة حرب وغرامات اخرى تبلغ ٢٩٦٠٠٠٠ وطولبت بديون غيرها مقدارها ٢٢٠٠٠٠٠ جنيه والمجموع ٨٢٠٠٠٠٠ جنيه . والديون الدولية اسلوب جديد من اساليب الامتلاك الدائم

المرشال هوبر ليوتي

وكانت قيمة الواردات الى المغرب الاقصى سنة ١٩١٢ نحو ٨٤١٠٠٠٠ جنيه وقيمة الصادرات منهُ نحو ٣١٠٠٠٠٠

قال المسيو ده لاني في صدر مقالتهِ المشار اليها آنفاً ما خلاصتهُ : —

من الامثال الشائعة في المغرب الاقصى « ان البطالة حلوة كالعسل ». اما المرشال ليوتي فشعارهُ « العمل بهجة النفس »

منذ احدى عشرة سنة كان المغرب الاقصى مثل بلدان العصور الوسطى قلما يصل اليهِ المستكشفون والتجار مع انهُ امام جبل طارق والى الغرب من الجزائر . وهناك بقايا عمران قديم مجيد تغطيها الفوضى . واعتساف القبائل يقضي على أمن التجار وزوال السلطة والعدل والنظام وهو يفضي الى سفك الدماء ونشر الادواء ولكن البلاد كثيرة الخيرات وسكانها اقوياء فما هو المصير المنتظر

تبلغ قيمة صادراتها الآن ١٧ مليوناً من الريالات وواردتها ٧٠ مليوناً والامن منتشر في ربوعها الا ما يجاور منها جبال اطلس حيث لجأت القبائل التي لم تذعن للحكومة . وقد اصلحت الامور الصحية في كل مكان واقيمت في البلاد حكومة منظمة

حسب الاساليب الحديثة رئيسها السلطان ووزراؤه . وعني بما في البلاد من آثار عمرانها السابق لكي لا تندثر . وانشئت محاكم مدنية ومدّ فيها الف ميل من سكك الحديد واخذت الادارة المدنية تحل محل الادارة العسكرية . وحدوث هذا الاصلاح كلهِ في هذه المدة القصيرة يعدُّ معجزة في اية بلاد كانت فما قولك ونصف هذه المدة كانت تشغلها الحرب العظمى . وهذا التقدم لم يقم بهِ رجل واحد بل اشترك فيهِ الجنود والنزلاء والاطباء والحكام ورجال السياسة ايضاً وكان لذوي المقدرة والكفاءة من الوطنيين سهم كبير فيهِ ولكن الذي تولّى ادارة هذا العمل رجل واحد وهو المرشال ليوتي فهو الذي وجّه مساعي الالوف من العمال الى الغاية المرومة والبسها الديباجة التي ظهرت بها . وسيرتهُ في ذلك سيرة عزم وتنظيم والمعيَّنة قلّما جاء التاريخ بما يضارعها ولو في القصص الموضوعة

هو بر ليوتي يبلغ السبعين من عمرهِ هذه السنة . كان في حداثتهِ ضعيفاً نحيفاً حتى بعث الحال ان يعالجهُ الاطباء لتقويتهِ لكن رغب في الفروسية فجاء فارساً مقحاماً وصار ضابطاً في الفرسان ثم أُرسل الى المستعمرات فاصابهُ داء الكباد وكاد يقضي عليهِ مرتين الاولى في مدغشكر والثانية من عهد قريب

وهو فارس ماهر وعالم مبرّز وشهم ابيّ النفس وكل صفة من هذه الصفات كافية لتنيلهُ مقاماً رفيعاً لدى اهل المغرب الاقصى ولا سيما المسلمين منهم . تراه يعجب بالشبان وما في قسماتهم من دلائل السرور ويحب المبادرة ويكرهُ التواني . تراهُ كثير الحركة لا يمل ولا يكلُّ يعجب بمقدرة الانجلوسكسون ويكرهُ الكسول والبخيل والنكس الوكل ولا يحتمل اضاعة الوقت في الاهتمام بالصغائر (١)

اجتمع في هذا الرجل شيء من مزايا بونابرت وكثير الاّ انهُ يكرهُ ميل بونابرت الى كسف اتباعهِ وتقييد حريتهم . ويشبه كتشنر في سعة الحيلة واكتشاف الوسائل . اما كتشنر فكان جندياً لا غير واما ليوتي فمقدرتهُ السياسية تفوق مقدرتهُ العسكرية . تراهُ يقول لجنودهِ « ان اعمال السلام اصعب واهم من اعمال الحرب المجيدة لان هذه كثيراً ما تكون عقيمة . الحرب قد تكون وسيلة ولكنها لا تكون غاية ابداً »

يبذل جهدهُ في التوفيق بين ما يظهر انهُ من المتضادات التي لا يمكن التوفيق

(١) الكلمة الانكليزية red tape اي الرباط الاحمر يشير الى ارسال اوراق الحكومة من جهة الى اخرى ومن قلم الى آخر مربوطة بخيط احمر للبحث عن مسألة تافهة قد يكلف البحث عنها عشرات الجنيهات اجور عمال وهي لا تساوي مليماً

بينها . وعنده انهُ اذا اوضح الناس اغراضهم بصدق واخلاص فقلما يقع بينهم خصام . وقد جعل هذا التوفيق بين المستعمرين من الفرنسويين وبين الوطنيين غايتهُ العظمى في سياستهِ فتراهُ يرفض كل ما يراد بهِ نقض عادات السكان وتقاليدهم ومظاهر حكمهم واحكامهم . وكان من اعظم مفاخرهِ أن اتى شيوخ خمسين قبيلة ليقدموا فروض الطاعة والولاء للسلطان مولاي يوسف فان اجتماعهم في فاس كان اكبر اجتماع شهدتهُ حاضرة المغرب الاقصى منذ ستة قرون الى الآن وقد دل على ان كل الجانب الجنوبي من البلاد اخلد الى الطاعة والسكينة ولم يسفك الاّ قليل من الدماء مع انهُ

مولاي يوسف سلطان المغرب الاقصى

لو اريد اخضاع هذه القبائل بالقوة لثارت حروب دموية شعواء ولم تأتِ بالنتيجة المرومة . ويعتمد ليوتي في معاملاتهِ على الاقناع بالوسائل الادبية ولذلك لقب بالافريقي كما لقب القائد الروماني شيبيو قبلهُ

ثم اورد الكاتب خلاصة وجيزة من تاريخ ليوتي في الجندية وما قعلهُ في مدغشكر من الاعمال الجيدة الى ان أُرسل الى المغرب الاقصى وكانت الثورة قد فشت فيهِ وهجمت القبائل على مدينة فاس العاصمة في مارس سنة ١٩١١ فاستنجد سلطانها مولاي حفيظ بالجنود الفرنسوية ووقّعت المعاهدة بين فرنسا والمغرب في ١٢ مارس التالي فثار الناس على الاوربيين في فاس وقتلوا ٦٨ منهم فبعثت الحكومة الفرنسوية بالجنرال ليوتي لاخماد الثورة فوصل الى الدار البيضاء في ١٣ مارس وزحف منها على فاس فلما وصل اليها هاجمتها القبائل فتمكن القواد مونيه وبرولار وغورو من صدهم عنها بعد بضع دقائق . وتنازل السلطان حفيظ عن الملك للسلطان يوسف

ولما نشبت الحرب الاوربية سنة ١٩١٤ ودخلت الجنود الالمانية فرنسا صار ابقاء الجنود الفرنسوية في المغرب الاقصى ضرباً من المحال فارسلت الحكومة تلغرافاً الى ليوتي ليبعث اليها حالا بثلاثين اورطة من الجنود التي عندهُ ثم ارسلت اليهِ تلغرافاً آخر ليخلي البلاد كلها ويعود الى الساحل ويبذل جهدهُ في حماية الاوربيين

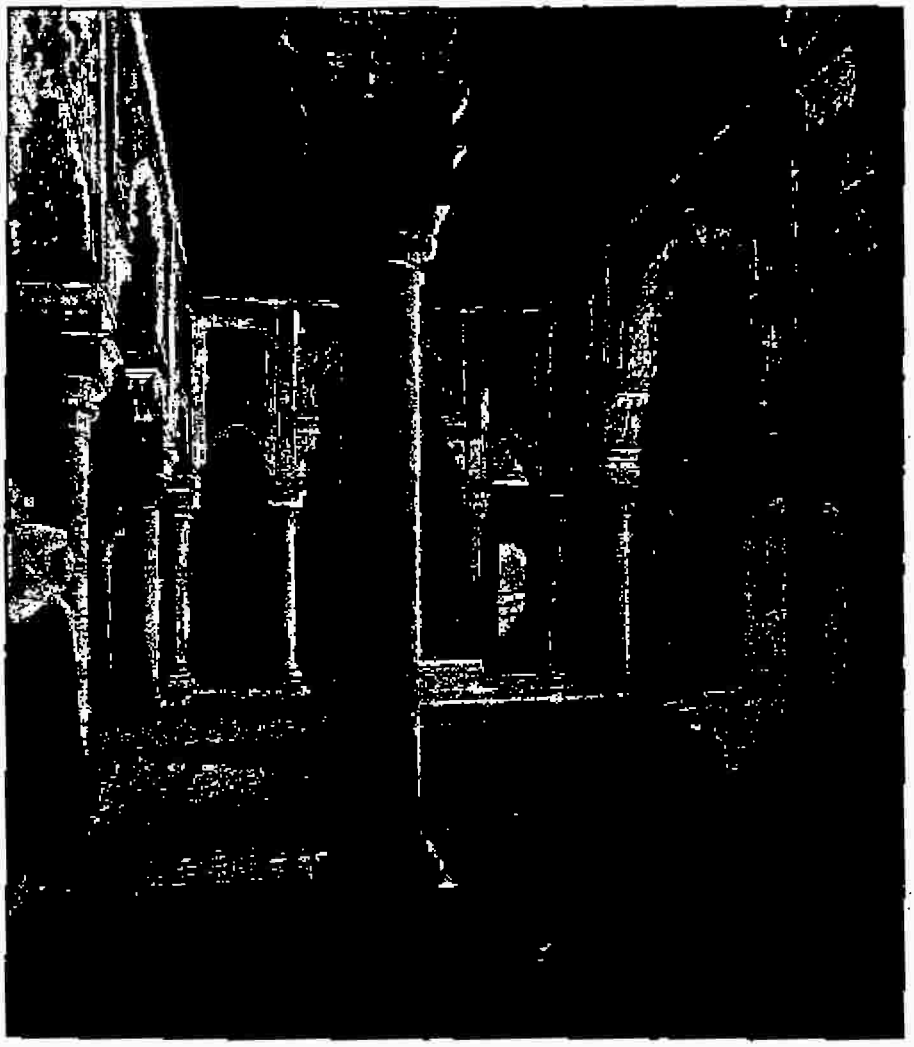

مدافن سلاطين المغرب الاقصى في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر
مقتطف يونيو ١٩٢٤
أمام الصفحة ١٥

وهو راجع حتى لا يتالهم مكروه. فتناول التلغرافين وجمع القواد الذين معهُ وهم انري وغورو وبرولار فوعد كلاً منهم ان يحتفظ بالموقع الذي هو فيه اذا بقي خط الاحتلال الحالي متصلاً بما فيهِ من الجنود والاَّ اعتقد السكان بتضعضع حال فرنسا فثاروا وقضوا على الاوربيين ودفعوا الجيش الفرنسوي الباقي الى البحر. اما هو فاصرٌّ على ارسال الجنود التي طلب منهُ ارسالها فيخلي كل البلاد من البحر الى العاصمة ويبقي الجنود التي تركت لهُ في العاصمة معتقداً ان المجازفة في هذه الحال اسلم عاقبة من الحذر ومعتمداً على التأثير الادبي وما رآهُ من ميل السكان الى المسالمة في البلاد المحتلة. فايّد الزمان ما اعتقدهُ واعتمد عليهِ.

كان ذلك في اغسطس سنة ١٩١٤ . وفي سبتمبر ارسل الى فرنسا ٣٧ اورطة بدلاً من ٣٠. وكانت المانيا قد بذلت جهدها في اثارة الفتنة في البلاد ولكن حالما أُرسلت اليها بعض اسرى الالمان من المارن آب الناس الى السكينة . واشتمرّ ليوتي في مد سكك الحديد فاتمّ انشاء سكة ضيقة بين الدار البيضاء وفاس سنة ١٩١٥ أُبدلت الا ن بخط واسع . واقام معرضاً تجاريًّا في الدار البيضاء وسوقاً في فاس فادهش السكان بعمله واستهوى قبائل جبال اطلس فالفت اسلحتها واتت فاس لتشهد هذه السوق

ودعي الى باريس سنة ١٩١٧ ليتولى وزارة الحربية في وزارة بريان لكنهُ رأى ان اقامتهُ في المغرب الاقصى اهم فعاد اليهِ وجنّد الجنود من المغاربة قابلوا مع الجنود الفرنسوية بلاء حسناً . وثارت بعض القبائل سنة ١٩١٨ لما بلغها تقدم الالمان ولكنها اخلدت الى السكينة حالما بلغها فوز الحلفاء وعقد الهدنة

وتقوم سياسة فرنسا في المغرب الاقصى على حسبان السكان شعباً غير شعبها ولكنهُ ليس دون شعبها. ومن رأي ليوتي ان نسبة المغرب الاقصى الى فرنسا كنسبة غرب اميركا الى شرقها فهو دار لبذل الهمة وتجديد القوى المستنبطة. انتهى

ويظهر لنا مما طالعناهُ عن المغرب الاقصى انهُ من اغنى البلدان في خيراته الطبيعية يجود فيهِ كل ما يزرع في الاقاليم المعتدلة من الحبوب والاثمار وفيهِ حراج واسعة ومراعٍ نضرة وفي جبال اطلس شلالات متدفقة يسهل توليد الكهربائية بها واستخدامها في كل الاغراض الصناعية . والسكان من سلالة اقوام تدلُّ آثارهم على ان لهم من المفاخر ما كان لاسلافهم في اسبانيا وحسبنا دليلاً على ذلك الصورة المقابلة وهي صورة مدافن ملوكهم في القرن السادس عشر والسابع عشر

واليك ما ثبت عن المغرب الاقصى حتى اوائل العام الماضي ليقابل بما كانت

عليه الحال عند بسط الحماية الفرنسوية

بلغت قيمة الواردات سنة ١٩٢١ نحو ٣٦ مليون جنيه وقيمة الصادرات نحو ١٢ مليون جنيه وقدرت ميزانية الحكومة لسنة ١٩٢٢ بنحو ٢٩٣ مليون فرنك للايرادات و٢٩٢ مليون فرنك للمصروفات. وكان عدد المدارس في المنطقة الفرنسوية ٣٧ سنة ١٩١٢ فصار ١٩٢ سنة ١٩٢١ الفرنسوية منها ٨٧ والفرنسوية العربية ٦٣ والفرنسوية اليهودية ٤٢ وانشئت مدرسة عالية فيها ٣٩٠ تلميذاً و٢٤ استاذاً ومدارس ثانوية فيها ٢٥٣٤ تلميذاً و١٤٠ معلماً ومدارس اولية فيها ١٩٧٠٥ تلاميذ و٦٠٥ من المعلمين ومدارس فنية فيها من التلاميذ ٧٠٥ ومن المعلمين ٦٣ ومدرسة لبنات الاعيان فيها ١٥٠ من التلميذات هذا عدا المدرستين الاسلاميتين الجامعتين في فاس والرباط. ويقدر عدد السكان في المنطقة الفرنسوية بخمسة ملايين واربعمائة الف نسمة وفي المنطقة الاسبانية بستمائة الف والمجموع ستة ملايين. وثبت من الاحصاء الذي تم سنة ١٩٢١ ان عدد سكان المدن الكبيرة كما ترى في هذا الجدول

في مراكش	١٣٩٨٧٤	والاوربيون منهم		٠١٩٥٦
وفي الدار البيضاء	١٠١٦٩٠	»	»	٣٥٢٨٣
وفي فاس	٠٧٠٥٤٠	»	»	٠٢٢١٧
وفي مكناسة	٠٣٦٥٩٢	»	»	٠٢٦٢٢
وفي رباط	٠٣٠٩٥٣	»	»	٠٩٢٢٦

وفي طنجة نحو ٢٦٠٠٠ من المغاربة و١٢٠٠٠ من اليهود

وتقدّر مصلحة الغابات ان في البلاد حراجاً مساحتها ٣٧٥٠٠٠٠٠ فدان اكثر اشجارها من السنديان الفليني والارز والصنوبر. وسنة ١٩٢١ بلغت غلة الشعير ٨١١٣٤١٣٠٠ قنطاراً وغلة القمح ٦٣٢٥٢٦٢ وغلة الفول ٤٨٩٣٦٤ وغلة الذرة ٤٩٨٧٥٦ والحمص ٢٤٩٦٤٤. وبزر الكتان ١٠٦٢٩٩ وكل ذلك بالقنطار المتري وهو مائة كيلو غرام. وكان في منطقة الاحتلال الفرنسوي حينئذٍ ٦٧٣٣٠٢٢ من الغنم و٢٠٤٠٣٠ من المعز و١٥١٧١١٧ من البقر ٤٢٠٢٣٢ من الحمير و٢٠٢٠٠٦ من الخيل والبغال و٩٨٢٥٢ من الجمال و٢١٨٧٦٣٧ من شجر الزيتون و٣٤٩٥٤٨ من النخل و٤٠٦٨٦٢ من شجر اللوز و٢٨٨٧٨٩١ من شجر التين وغير ذلك من اشجار الفاكهة. وعسى ان تحسب تلك البلاد بعد سنوات قليلة بين ارقى البلدان الشرقية